عام

أوهام الهوية:
العالم والتحول الجذري
قراءة في كتاب داريوش شايغان

الحاج دواق

باحث جزائري

مؤمنون بلا حدود

Mominoun Without Borders

مؤسسة دراسات وأبحاث

قسم العلوم الإنسانية والفلسفة

جميع الحقوق محفوظة

مؤسسة مؤمنون بلا حدود للدراسات والأبحاث

All rights reserved

Mominoun Without Borders

مدخل:

يعتبر داريوش شايغان (1935) واحدًا من الفلاسفة الإيرانيين المعاصرين، اتسمت شخصيته بالتركيب الشديد، لجمعه بين ثقافات عدة، إن من جهة الانتماء والتلقي الأولي، وإن من ناحية الحضور والفاعلية. إيراني المولد، فرنسي المحيا، جامع للثقافات الفارسية، فالتركية، فالروسية، الإنجليزية إضافة إلى الفرنسية، يجيد السنسكريتية، ملم بأغلب آداب التصوف والعرفان الشرقي، الهندي منه على وجه الخصوص. مطلع على مصادر الثقافة الإيرانية التقليدية، والثقافة الإسلامية، بالإضافة إلى الثقافة الغربية في محاضنها الفلسفية والأدبية الأساسية، بل وتضلع في اكتساب عناصر هذه الثقافة، خاصة الفلسفة منها وتاريخ الفكر. دارس للحداثة ومتتبع لمكوناتها الجوهرية.

تمحور مشروعه الفكري حول الفروقات الأساسية التي أضافتها الثقافة الغربية الحداثية إلى الثقافة الإنسانية، وعمل على فكرة النقد الروحي لمكتسبات الحداثة حدا من توغلها اللا إنساني الذي أضر بالروح البشرية فأفقدها سماتها، رغم مكاسبها النوعية غير المسبوقة، وهو بذلك يمارس عملا مزدوجا؛ وجهه الأول يتمثل في الاستقاء المفهومي والمنهجي والنقدي من الغرب، ووجهه الآخر توظيف تلك العدة المستقاة في السبر عن الأزمات النوعية والطارئة في هذه الثقافة. وفي واحد من حواراته يصف الحداثة بقوله: مغامرة الحداثة لها وجهان اثنان، فمن ناحية هي إيجابية للغاية، لأنها حرّرت الإنسان من تلك الوصاية المزدوجة التي سمّاها الفيلسوف كانط (1824) بـ "قداسة المقدس" و"جلالة السلطة". فلولا المغامرة الفوستية (نسبة لفوست) التي قام بها الغرب، لما صار الإنسان لِما صرناه اليوم جميعا: أشخاص يتمتعون بالحق والقانون. لولاها لكنا قد بقينا مؤمنين متشبثين بعقائد القرون الوسطى؛ فبفضل هذه المغامرة إذن، صار الإنسان عنصرا يؤسس ذاته بذاته. فالفصل ما بين السلطات والعلمانية وما إلى ذلك... كل هذا حرّرنا وخلصنا من أصفاد الماضي المظلم وقيوده. لكننا من ناحية أخرى، وبحكم تشبثنا بهذه الحرية، افتقدنا العالم السحري وما ينطوي عليه من رموز روحية عميقة وقوية- وهو ما ندعوه بزوال الوهم...الجانب السلبي للحداثة.[1]

من كتبه التأسيسية المترجمة إلى اللغة العربية؛ ما الثورة الدينية، الحضارات التقليدية في مواجهة الحداثة، ترجمه محمد الرحموني، وصدر عن دار الساقي في بيروت، وأيضا كتاب الأصنام الذهنية والذاكرة الأزلية، عن دار الهادي، ووضع له ترجمة مهمة حيدر نجف، تعرض فيه لإشكاليات الهويات التقليدية ومصيرها، أمام براديغمات الحداثة المنافسة، وكيف يمكن لها أن تتموضع ضمن مواقع التاريخ من غير أن

---

[1] داريوش شايغان، CLES NOUVELLES، ترجمة وإعداد: مدني قصري.

تفوت على نفسها فرصة الاندماج في العالم الحديث، لكن من غير ضريبة الإهدار المبرمج. مؤلفه الآخر المهم النفس (النظرة) المبتورة، عن دار الساقي، أورد فيه منطق الاختلالات والفوات التاريخي بين ثقافات العالم، وكيف يصير الغرب هاجسا موقظا وناقضا في الوقت عينه للشعوب الأخرى التي تحيا خارج نظام الحداثة، خاصة التجمعات الثقافية المسماة إسلامية، وكيف انعكست صدمة الحداثة على تجربتها التاريخية ورصيدها المعرفي؟ وكيف فاتها أن تشارك البشرية أفراح التاريخ ومنجزاته المكينة في منعرجات التحول الكبير، وقادها إلى القهقرى التي لا رجعة منها؟

1- أوهام الهوية؛ المنبت الإشكالي والتوتر النظري،ملامح تجربة مريرة:

وسفره الآخر، المهم، المكون من فصول ثمانية، والذي نحن إزاءه، أوهام الهوية، والصراع المرير بين التاريخ في شكله العالمي الكوني، وبين الممارسات المحلية والداخلية له، في إطار تقاليد حضارية خاصة، تنتسب إلى هذا الاختيار أو ذاك تبعا لتجربة الروح الفريدة. لكن هل يمكن لهذه الروح أن تحافظ على نقائها، وخلوصها الماهوي من كل شائبة ترد عليها من تجارب الآخرين وتأثيراتهم؟ وهل تستطيع ذلك؟ كيف"... يمكن أن نتصور مساومة بين نمطين من الوجود. يدعونا الأول إلى حدود الفكرة، إلى نهايات الأيديولوجيات ذات الغايات والوسائل اللا محدودة. بينما يغرقنا الآخر، كما يقول إيكهارت، في صحراء الوجود..."[2] إن الإشكالية المركزية لهذا الكتاب تبرز في التوتر الشديد، والاستقطاب الحاد بين أنماط وجودية كثيرة، خاصة بين اثنين منها؛ أعني الغربي والإسلامي، باعتبارهما يتضمنان داخلهما خلاصة تضرب بجذورها في التشكل الأول للتجارب الحضارية الإنسانية. أحدهما ظهر عند اليونان وفلسفتها في منزعها الإنسانوي، الذي مكن البشر من خوض التاريخ في مغامرة مستمرة، تجلت في تجربة اللوغوس وخصمه الميتوس، في تداول دوري يماثل حركة الين واليانغ غير المنقطعة.

والأخرى طريقة المعرفة المتصلة مع المتعالي المفارق، الذي يفيض باستمرار بما يبرز عنايته الشديدة والمستمرة بالبشر؛ فانبثق نمط من الرؤية إزاء العالم، تعتمد منهج الاستمداد الهدائي، الذي يكون في فترة مسددا، وفي أخرى مثبطا معيقا تبعا لنوع التواصل معه.

لكن من الحقائق الوجودية الماثلة، أن النمط الأول قد تمكن بتجربته من العالم، وأخذ يعمم أسلوبه في الحياة، كخيار يكاد يكون الوحيد. أما الثاني، فهو يتراوح مكانه متحسرا على ما فقده من صلاحيته، فانعكس على صحته، ووجد نفسه أمام خبرة قاسية ومريرة، حيث أضحى يبرهم باستمرار على حقانيته، وتعاليه،

---

[2] داريوش شايغان: أوهام الهوية، ترجمة محمد علي مقلد، بيروت، دار الساقي، ط01، 1993، ص 30

وجدواه الآن، كما في التاريخ. لكن هيهات أمام حداثة كاسحة، لا تهادن حتى تساوم، ولا تساوم لتهادن، فهي طراز فهم للعالم، دفع الصور القديمة إلى التواري والانزواء في أمجاد كانت، لكنها ولت، وأخرى أخذت في الظهور والنشوء، ودائما على حساب ما كان. فهل يمكن إزاء الحداثة أن يكون هناك موقف، بمعنى هل تمهل منجزاتها الثقافات الضعيفة أن تحتفظ إزاءها بمسافة تروٍّ معقولة؟

2- الإثّيات التاريخية، والأصول الأولى في وجه الحداثة:

إن الحضارات التقليدية مهددة في أصل وجودها، أما عن استمرارها فهو إلى المستحيل أقرب، ورغم ما تملكه من رصيد تاريخي يتمثل في تجارب ثقافية سابقة، ورصيد قيمي زاخر، وأديان شادت العالم القديم بكافة ما فيه، إلا أنها الآن أمام تحدٍّ أنهكها، وعجَّل باستنفاد ما لديها من مكنة تواجه بها ما وضع في طريقها من أزمات ومشكلات لا بد لها من حل.

ولأن الأشكال التقليدية غالبا ما تعمد إلى حلحلة المشكلات بمنطق التجاوز واستلهام المتعالي، بالبحث عن اليقين والاستقرار المعنوي، فإنها لا تحرك في واقع الناس شيئا، على ما فيها من غنى وثراء مكينين، إلا أنهما في الأخير لا يمنحان الحياة انقلابات جذرية تبنيها في أشكال متحولة ومتقدمة إلى الأمام، بوعي السيطرة وأساليبه التقنية المتيحة له السيطرة على العالم وعلى الإنسان، بفهمهما ودفع طاقاتهما إلى الانفجار والخروج. "ذلك أن علاقات الإنسان بالطبيعة تنقلب لأول مرة في تاريخ البشرية، رأسا على عقب. وقد جاءنا هذا الانقلاب من الغرب؛ ففي الغرب انطلق، في القرن السادس عشر والسابع عشر، عصر العلم والتقنية، وفيه تحددت المعرفة باعتبارها طاقة (باكون)، وأصبح سيد العالم والمتنعم به (ديكارت)"[3].

وهنا نلاحظ مع - شايغان - أن العلاقة بالعالم لم تعد متأسسة على التوافق والتناغم، والبحث عن الهارمونيا الشاملة، بل دخلت في خضم معترك شديد المرار، مقصده الأساس تحويله إلى مادة استعمالية وفق نمطين من الفهم، أحدهما يجعل المعرفة قوة وسيطرة واستعمالا، ولآخر يدخلها في نطاق السيد الذي لا سيد فوقه، يتنعم بالعالم بمقدار قدرته وما يستطيعه. كل النظرة السابقة إلى العالم –ما قبل النهضة- صورت على أنها أوهام وخيالات، لا تعدو أن تكون مجرد صور نسجها خيال العجز، ومسعى الثبات، لكن دخول مفهوم الصيرورة والتغير الدائب لكل المفاهيم، جعل من العلم حقائق متبدلة، ومن الفلسفة مفاهيم متجددة، ما صعب في النهاية الإقرار بثوابت متعالية مصدرها الدين أو التاريخ. وهنا ألقت الحداثة في وجه العالم تحديات ظاهرة، مبعثها الإيمان بمقدرة العقل والعلم، وفاعليتهما في المادة، وتحول الأخيرة إلى مبتكرات مستعملة، منشئة لحياة

[3] المصدر نفسه، ص 8

غير مسبوقة، وهنا بدأت القناعات تهتز وتتلاشى، بل وتمحي، وتحل مكانها أخرى هي صنيعة الإنسان ليس إلا.

فقد أضحى العالم الحداثي بوصفه تحديا جمًّا، للفلسفات القديمة، مجموعة من الصيغ الكمية، والمعادلات الرياضية، وفقدت السماء ساكنيها من الكائنات السامية، وحلت محلها الأجرام الكبيرة والصغيرة، وعوض صراعات الشياطين والملائكة، بات غاصا بكواكب وأقمار ونيازك...والإنسان استعاد مركزيته، وأخذ يكشف عن البواعث الصميمة لسلوكياته، فهو ليس ذلك الكائن الطاهر الشبيه بالله، بل هو مجموعة من الرغبات والحاجات البيولوجية والنفسية اللاواعية التي تقوده، فتجعل منه القوة البانية، أو المدمرة، ودخلت العوامل الاقتصادية، والضمير الجمعي في شرط أفعاله، وإدخاله في مسار سيرورة التاريخ، الذي صنعه ثم خضع إليه، وهنا وقعت واقعة التاريخ، وانقلب الكيان البشري، من:

- العقل إلى الغرائز.
- الأخرويات إلى التاريخ.
- الروح إلى العقل.
- التأمل الشطحي، إلى مواجهة الطبيعة[4].

إذن؛ هي انقلابات جذرية ونوعية، وليست مجرد تصويبات للتجارب المألوفة في طريقة تفكير القرون الوسطى، وحتى منطق اليونان المجرد والصوري، وتعممت الممارسة المستحدثة، جراء المسحة الكونية لرؤيتها، على العالم كله، وباتت كل الثقافات في مرمى الطراز الحداثي في الرؤية الكونية، ومنهج التفكير، وطريقة العيش، ونمط الحكم... فانبثق التحدي، ووجدت الحضارات الأخرى؛ أي غير الغربية، نفسها أمام تهديد مباشر لكل أولوياتها ومؤسساتها الرؤيوية، خاصة بفرض المنطق المرعب لها، والمتمثل في الاختزالية المقيتة التي تلغي كل الحدود الكونية والإنسانية، لصالح القوة، والمادية، والغرائزية، والتقانية، والأداتية، والعجيب أن محاولات التصويب وتجاوز الاختزاليات السالفة، وقعت هي بدورها في أخرى من نوع مماثل قاد إلى القلق والتمرد والغثيان والاضطراب، ما يجعل الحاجة ماسة إلى نمط من الوعي المركب المأخوذ من تمازج حصيف وذكي لكل التجارب الحضارية، حتى تنتهي إلى شكل من الحياة لا يلغي الروح لصالح المادة، أو العقل لصالح الغرائز، وكل هذه المتناقضات أفضت إلى تفويت فرصة التعايش والشكل المتوازن للحياة،

[4] نفسه، ص 13 وما بعدها.

فالهندوسي مثلا يحكم على تجريبية المعرفة بالسطحية والحسية والحيوانية، وكذا الديكارتية تحكم على ما يتعدى منطق العقل بكونه غير منطقي، ولا يمكن البرهنة عليه.

وعظمة الإنسان في طول الله وليس في عرضه، والأنثروبولوجيا التي تقضي على المتعالي لصالح التاريخي، تنتهي بدورها إلى القضاء على الخصوصية الإنسانية وفرادتها، ويضيع المقدس، ويغترب الإنسان في الطبيعة أو التاريخ، لذا من اللازم استعادة كل شيء في غناه وثرائه وتنوعه وتميزه، وهنا تكمن الخصوصية الإنسانية الفريدة وغير المكررة.

"إن التحدي المعاصر يعلن نفسه كنداء للتاريخ، وكأنه المصير الوحيد الذي ينبغي إنجازه"[5]، وهو نداء للبشرية جمعاء، لأن مشكلاته قد توزعت على العالم كله، وإن كانت نسبها متفاوتة، تساوقا مع عمق الاتصال بالوعي الحداثي وسطحيته، فهناك تجمعات دفعت ضريبة أغلى من الأخرى لعمق الصلة، لذا مكتسبات الحداثة لا تنكر، كما وأن أزماتها ظاهرة لا تخفى، ما يستوجب عمليات ثقافية وتاريخية متراكمة ومتأسسة بتوافق عام للخروج من هذه الأزمات، فالحداثة من حيث المبدأ مكسب، لكن أسسها في الغالب، انبتت، وهي بحاجة إلى آلية الوصل مع القيم التقليدية، لتتعدى من المادية الشيئية إلى التقنية، ومن الأنثروبولوجية الماحية لكل خصوصية، إلى أنثروبولوجية مستعيدة للإنسان المتميز، ومن العقل الأداتي الآلي، إلى العقل النقدي والوعي المحتفظ بمسافة بينه وبين الأشياء، ومن النفس الغريزية المغرقة في تحكمات البيولوجيا، إلى النفس المتراوحة بين تسديدات الروح، وحاجات الجسد...

وهكذا بالنسبة لكل التجليات الأخرى للأزمة الناشئة عن الظاهرة الحداثية؛ أي تضافر جهود الكل لتجاوز الانكفائيات المختلفة، واستعادة السلام الشامل مع الكل.

"لهذا يبقى كل شيء قيد الإعداد والمراجعة. إن هذه الحضارات الكبرى لن تتمكن من ولوج هذه القفزة الخطرة، ولا من إنقاذ نفسها، ولا من المساهمة في أعمال خلاقة لعمل جديد، إذا لم تعد إلى رشدها وتعرف مصيرها التاريخي"[6] بمساءلة المنقول، وتفعيل الموروث، والعمل على خلق أشكال من التفكير المنفتح الثري والغني، بعيدا عن إكراهات الانغلاقيات والانسدادت المقيتة، التي ولدها مفهوم البراكسيس المنفصل عن القيم، حيث يدخل المؤمن به إلى سيرورة ودورية من الفعل وردة الفعل، في دوائر مغلقة معزولة لا مخرج منها، سوى إلى دوائر أخرى أكثر انغلاقا...

[5] نفسه، 19

[6] ص 25، وما بعدها.

والذي أورثته الحداثة بفتوحها النوعية أمام الوعي البشري، مفارقات جمة، جعلت الإنسان يتنازل في ظرف وجيز عما أنجزه في قرون طوال، وما تمكن منه في إطار تطوره، خسره في لحظات؛ فالإعلاء من قيمة العلم والتقنية انعكس على أساليب الحياة السابقة، وشكك في قيمها، ورمى بها في زوايا النسيان، ما اسم الحضارات جميعا إلى حال سيزيف البئيس، الذي يكرر روتين عمل مغلق دائم، يبدأه اليوم، وهو يعلم مآله، لكنه يقوم به فقط، لأنه لم يعد يحسن سواه، والفكر الإنساني لما خسر ثراءه في تنوعه، انتقل إلى الخيار بين المرض في منبته، وبينه في أعراضه، وفي الأخير هو مرض. والحل كما يقترحه داريوش شايغان، هو: تسوية جذرية بين الحضارات جميعا، حالما تستدعي غناها القيمي، ومسالكها العلمية والتقنية، بإحاطة من الروح، حينها يمكن تلافي المصير المحتوم، الذي غرقت فيه مجتمعات، وشرعت في دفع ثمنه.

3- الهويات وخطاب الصيرورة، المحافظة/الزوال:

الشرق والغرب، ليستا مقولتين جغرافيتين تقعان في مكان ما من الأرض، بل هما في العمق رؤيتان إلى العالم وطريقتان في التفكير فيه؛ أي نعم-يقول شايغان- ليس في عالم الحداثة عوالم محايدة تقبع في جزائر معزولة، وبينها تشابكات يستحيل فضها وتمزيقها، إلا أن التحليل التاريخي والثقافي يبرز ألوانا من التمايز تسمح لنا في الأخير أن نعقد نوعا من التصنيف غير الحاد، لكنه دال، فنقول شرقا، وقبالته ربما غرب، أو عوالم وانتماءات أخرى مختلفة.

وهنا نبحث عن موارد تسمح باللقاء بين بني الإنسان، وتوجد بين مجالاتهم التاريخية تقاطعات واحتكاكات تضفي الغنى والقوة على كل ممارسة، وإن نسبت إلى هذه الجهة أو تلك. إنهم "..حددوا كل على طريقته، عظمة الشرط الإنساني وبؤسه، ونقطة التقاطع هذه، هي بالضبط الصلة التي يمكن أن ينبثق منها، على ما أعتقد، الأمل بحوار جديد بين البشر"[7] لكن لماذا الحوار؟ لأنه الطريق الوحيد نحو تعارف الحضارات واكتشافها لبعضها، ومن غيره هو التدابر والتطاحن الذي ينتهي إلى القضاء على الإنسان، وهذا الأخير هو الأرضية المكينة التي تخلق الأفق التواصلي من جهة المبدأ، أو تسمح به وتجعله يستمر، ويثمر. الإنسان الممزق في كل مكان، هو الوحيد الذي يستطيع لملة كيانه ويبنيه في توليفات عبقرية تتضافر في نسجها خيوط تتأتى من كل الجهات، بمصادرها الثقافية المتنوعة، ولأن العبء ثقيل، فلا يرفعه واحد...

ولأن داريوش ينتمي إلى ثقافة شرقية تسكن وجدانه العميق، فهو يراهن على ما تزخر به من قيم روحية ومعنوية تمد الكيان البشري بطاقة هائلة تقفز به على أزماته، إلا أن ذلك لا يفي بالمقصد، فتكتمل دورة الأداء

[7] ص 33

بمنهج النقد الذي يدن فيه إلى الغرب الذي يحبه، وفي الوقت عينه يؤمن بتجاوزه، لا بإلغائه، ودائما بالحذر من الوقوع في الوهم المزدوج، وهم ناشئ عن الظن بامتلاك هوية تاريخية ناجزة، ووهم الزعم بالانتماء إلى روح الحداثة وعالمها، وفي عمق التحليل الحضارات التقليدية تشهد أزمة هوية مريرة، وأزمة استمرار خطيرة، لأنها ستضمحل بعد حين، إن لم تعمد إلى تقوية مصادرها والدفع بها إلى مناجزة مشكلات الإنسان الحديث والإضافة إليه، إنها حضارات تشهد حالا غريبة، فمن جهة هي التي منحت الوعي البشري شعلته الأولى، ومن ناحية أخرى هي التي تفقد مناطق حضورها وتسلم أبناءها لنمط الحياة الحديث، إنها مفارقة ليس عليها من شعار سوى أزمة الهوية المكينة..أزمة فصلت الحضارات التقليدية عن الغرب وجعلتها تبتعد إلى الماضي السحيق، حيث كثير من المعتقدات باتت من طقوس العمل الأنثروبولوجي الذي يدرس التجمعات التقليدية، بل والبدائية، وهذا نبه كبار الفلاسفة كـ "هيغل" وغيره، إلى تتبع مراحل تشكل الوعي وانقذافاته في صيرورة لا متناهية، ما يدل على أن الوعي يتكامل، يقفز، يتشظى، يتشكل، يصير، يتحول... فظهر في الأخير أن الشرق متخلف رغم غناه التقليدي ومصيره، إما أن ينفتح على تجارب الآخرين فيتعلم ويتطور، أو يتلاشى ويزول.

و حد الحدود، أو الحد الفاصل، كما يؤكد عليه شايغان، يبرز "..في انزياح عن المركز: من الأعلى إلى الأدنى، من الأخرويات إلى التاريخانية، من الروح إلى الغرائز، من تأمل الذات المتلاشية في المطلق، إلى التوكيد المتنامي للأنا المفرطة في انتفاخها في مواجهة الله كما في مواجهة الطبيعة."[8] هي إذن انتقالات جذرية وتحولات في المرجعية، الرؤية، والمنهج، والنسق، والتطبيقات، فيما يخص الكون والإنسان والتاريخ، لم يعد العالم كما كان، وكل الصور المألوفة عنه أخذت في الامحاء والتلاشي، وبرزت في انتقالات أربعة أساسية تمثل خلاصة الفوات التاريخي بين الغرب، وكل العالم، وخاصة الشرق.

من النظرة التأملية إلى الفكر التقني، من الأشكال الجوهرية إلى المفاهيم الميكانيكية، من الجواهر الروحية إلى الميول والغرائز البدائية، من الأخرويات إلى التاريخية. إن الحالات الأساسية السالفة، بتفصيلاتها، وضعت الحضارات التقليدية في حرج تاريخي شديد، فهي لم تعد مخيرة بين الحضور الكلي لله، أو تدخله الجزئي، بل أضحت في حال احتضار الآلهة وسقوطها القريب، فالمشكلة ليست بين حضور الإله أو غيابه، بل بين احتضاره وموته الوشيك...هذا الوضع شكل عند الثقافات المقاومة تيها مفزعا، بين كونها لم تستوعب الوعي الرفضي كما هو عند الغرب، ولم تستوضح صلتها المباشرة مع تقاليدها، ما يصعب الحوار بينها جراء القلب السلبي الذي مورس عليها، وحرمها من توافقات في الرؤية تعطي في الأخير إمكانية التواصل، وهو وضع في الأساس حرماني، لكن الوعي اليقظ بإمكانه تحويله إلى فرصة تاريخية للتواصل والتشابك والتداخل،

[8] ص 41. وما بعدها مهم جدا، ويمثل لب الكتاب تماما.

بنوع من الاستساغة الجيدة كما يقول دوستويفسكي، حالما طرح بمعية مفكرين آخرين إمكان الجمع بين الإيمان والإلحاد، بين الله والعلم، فقرروا جميعا صعوبة الاستغناء عن أحدهما لحساب الآخر، فلكل جدواه في مكان ما في الحياة، كذا الصلة بين الحضارة الغربية والشرق، بالمستطاع أن يوفر الثاني إمكانا قيميا للأول، وأن يتيح الأول بنجاحاته المتنوعة للثاني رصيدا يعيد به فهم ذاته، أو اكتشافها بمقومات منهجية ونقدية قد تكون موجودة عنده بكيفية ما، إلا أن التشارك يؤدي بهما جميعا إلى الكشف عنها، أو على الأقل الانتباه إلى وجودهما.

4- الأيديولوجيا كإمكان:

ساق شايغان في هذا الفصل، حسرة مركبة، ذلك أنه من عالم لم يعد يمنح اليقين الذي كان عليه في الماضي، ولم تعد قيمه ذات إشعاع وتأثير، ولأنه يعيش في الغرب فقد باشر نجاحاته الكثيرة، ما أورث لديه رغبة قوية في تعميم هذه النجاحات على العالم كله، من غير أن يسبب ذلك فقدانا لخصوصياتها. وخلاصة فهمه للظاهرة الغربية، قادته إلى اختزال الأسباب التاريخية التي كونتها، فلخصها في رضات أو هزات ثلاث، تبعتها هزات تاريخية ارتدادية كثيرة.

الهزة الأولى، كوسمولوجية؛ كان رائدها كوبرنيك وغاليلي وغيرهما، حيث أبرزا نموذجا للكون خال من القوى المفارقة، ونقلاه إلى الوعي في صور وتصاميم مفهومة ومدركة، بل ومحسوبة، ما قاد إلى تطور العلوم الفلكية وازدهار النشاط العلمي في هذا الإطار. الهزة الثانية، بيولوجية طبيعية؛ كان وراءها داروين ومدرسة الطبيعيين، والتي هزت مكانة الإنسان وتعاليه الأنطولوجي، وموضعته في سلسلة من الانقلابات والتبدلات التي طرأت عليه وكل العالم في شكل تاريخ طبيعي جذري، تبعته تفوقات في مجالات الطب والبيولوجيا وعلم الطبيعة. أما الهزة الثالثة، وهي الأخطر؛ رغم أنها بشكل ما صدى لسابقاتها، حيث عبرت عن الوعي كمساحة صغيرة لا تتجاوز خمس الكيان الإنساني، لأن الأخير محكوم بطاقات خفية تقبع في سويداء نفسه، ومنبعها اللاوعي أو اللاشعور، كمجال للمكبوت والمنسي والمقموع، وعمل على تأسيس هذه الرؤية سيغموند فرويد، حال أقر أن الوعي البشري قد تشقق إلى الأبد، ولم يعد في الإمكان التعبير عنه بوصف المتجاوز والمتحكم، والمستبطن لكل تجاربه، للاعتبارات السالفة.

كل الأوضاع السالفة جعلت من الغرب ظاهرة عالمية، علمية تكميمية، ووضعية في أحيان، ما أدى إلى النزعة الدنيوية والروح العلمانية التي شقت الحياة إلى نصفين في البداية، ثم استأثرت بها إلى الأبد، بوصفها مجال الاعتراك والتدافع البشري في الأداء بعيدا عن كل المعوقات المحتملة أو الموجودة. لكن الشرق ظل جيبا عصيا على الحداثة بلازماتها، واندفع في صوب العمل وفق منطق اجتزائي يلغي الروح القابعة خلف الفتوح

الكونية التي سببتها الانتقالة النهضوية والتنويرية للمعرفة الغربية، وهنا نشأ خطاب أقل ما يوسم به، أنه مموه واهم، قائم على الأيديولوجيا اللاغية، وهنا يقر شايغان بإمكان آخر في مقاربتها، إذا استطاع الوعي المركب جعلها تلتقي وتتعارف وتتفهم الآخر وتندمج معه.

وختم الفصل ببعض التمثيلات لنصوص تتشابه في الظاهر، لكنها في العمق تخفي الشرخ التاريخي بين تجربتين ورؤيتين مختلفتين للعالم. وأهم نموذج ساقه للتمثيل كان علي شريعتي (1978) المفكر وعالم الاجتماع الإيراني، الذي عمد إلى المعتقد الإمامي الاثني عشرية، مستقيا منه مقولاته كالشهادة والإمامة، ليجعلها دافعا لتكون التاريخ الخاص، ومستلهما إياه لتشكيل وعي ثوري مواجه لكل قوى الاستكبار في نفس يساري شديد، وهنا بالمناسبة يذكّر شايغان، بسبب نجاح وبروز الخطابات اليسارية في الدائرة الشرقية، لأنها يوتوبيا حالمة، وأيديولوجيا ممنية بالخلاص، لذا تطابقت شكليا مع الوعي الروحي للمجتمعات الشرقية في تراثها المعنوي المختلف. وهنا يقول شايغان مستدركا على شريعتي، أنه رغم نزعته العدائية للغرب، فهو في عمقه متغرب، ويقارب الإسلام بمصفوفة مقولات مأخوذة من هناك، بل عمله منقوض بحسبان إفراغه للدين من المحتوى المعنوي، وحشره في الدائرة الأيديولوجية المقزمة لدوره في التاريخ.

ومع ذلك يعتبر نقده إرهاص وعي مقبل يمكنه تخطي سجن التاريخ إلى أفق الانفتاح والاستقاء من المعين المتعدد والثري لكل الفضاء الإنساني، ورغم المآسي يمكن للتجاوز أن يتحقق؛ فالوعي، والوعي المضاد، أو النقدي في مستطاعه تحقيق التقدم وتصحيح الأخطاء، وهنا يقر بأن قوة الغرب لا تكمن في تقدمه التقني وحسب، بل في أنه يراجع نجاحاته الكبرى باستمرار، ويدفع بها إلى أشكال متجددة من الحياة.

5- وهم الهوية، أو النقاء المستحيل:

يعتبر هذا الفصل لب الكتاب، ومدار المحاضرات الأخرى، لأنه يلخص فيه الإشكال النوعي للتفاوت الذي تعيشه الفضاءات الثقافية التي لا تزال تعتقد في نقائها وخلوصها من كل شائبة تاريخية يمكن أن تلوث ثوبها الثقافي، وهنا يقر بصوت مدوٍّ، إن الشرق مغربن، والغرب مشرقن، والعالم مفتوح الحدود، لكنها في الأخير حدود ماثلة لا يمكن التغافل عنها، أو تجاهل تأثيراتها المتنوعة. يستعير، متهكما، مثالا يختصر المفارقات التي تملأ سماء المسلمين بمقولات الاستسهال وتضخيم الذات الموبوءة بمخلفات التاريخ المريض، مثال رشيد رضا (1935) الذي قال ببساطة: إن الإسلام فروة لبسها المسلمون مقلوبة رأسا على عقب، عدلوا وضعها في الارتداء يعتدل حالكم؛ بمعنى اكتفوا بما عندكم من ميراث الدين، ومن مقومات الروح القابعة خلف التلوينات الثقافية والمعرفية المختلفة، تتقدموا، وتتجاوزوا الغرب بحداثته، إنها معادلة مريرة تفصح عن تركب

بكيفية معوجة، تجعل المنكفئ صنوا للمنفتح، والمتقدم بمعاناة التاريخ، كالسادر في بلهنية عنجهية الذات المتورمة، ولا حول ولا قوة إلا بالله.

الإشكال السابق، قلة قليلة فهمته، لأن الوعي ابتلي بذهان الاستسهال وتسطيح الأمور، أما من تجاوب بمنطق العلم والفلسفة لاستيعاب الفوات التاريخي، فقلة هم. الإنسان الرجعي مهووس بالبدايات، مسكون بالأصول، وكلما حاول ابتعادا عنها ارتمى في أحضانها من جديد، لأن آليات التجاوز يظنها في البدايات، لذا نلقفه قابعا في مكانه من التاريخ لا يجاوزه، ويدخل في حلقات مفرغة شبيهة بالشكل الحلزوني الذي يبدأ في نقطة ولا يصل إلى أخرى، ومبعث الحيرة في كون التقليدي يعمد إلى الجمع بين أشياء لا تجتمع، فما معنى أن يكون تقيا ورعا خاضعا لمنطق الإسلام في الحياة، ثم يبغي أن يكون مقاولا خاضعا لفلسفة الرأسمالية في التنافس، فهو إما خسر إحدى الجهتين لصالح الأخرى، أو يغط في أريحية التناقض والمفارقة الأساسية.

ومثل للوضع السابق، بالكاتب الإيراني جلال الأحمد (1969) صاحب كتاب مريض الغرب، الذي أنكر على الآخذين من الغرب منتجاته، ثم يقول في النهاية ليس من حل أمام البشر إلا أن يأخذوا عن الغرب آلاته ووسائله وتقنياته للتقدم، وهنا مكمن المؤاخذة ومربطها، والوعي المتأسس على المفارقات لا يحل مشكلا، ولا يحقق تقدما، بل يورث أزمات أكثر تعقيدا مما عند الآخر، وهنا تماما تتجلى أزمة الهوية في أوهامها، أو أوهامها في تلفيقاتها وتصنعاتها. كتابه من قبيل "..حقل التناقضات. فمن جهة تتدفق أفكار حدسية خاطفة ومشاريع أفكار تفتقر إلى المفاهيم؛ ومن جهة أخرى تظهر عقبات مزمنة تعوق التشخيص. ويسود الغموض والإبهام من أول خطابه حتى نهايته. إنه توال من التناقضات المدوخة التي تجنح سفينتها على الصخور.."[9]

وما زاد في عمق الوهم الهووي، عند الكاتب ونماذجه كثيرة، شيطنته للآلة وجعلها مدخلا لكل سوء وتغريب ينجلب خلفها، مع احتفاظه، بل ودعوته إلى المنافسة في منجزاتها ومن خلالها، واستعمال كل المعاني التي تم تجاوزها هو قفز على الحقيقة التاريخية الناشئة عن سيرورة الاستمرار، وهنا يؤكد شايغان على ضرورة اتسام الوعي بالجدية التامة، ويسأل ما هي الآلة؟ إنها نتاج سيرورة تاريخية، لذا لا يمكن لمفاهيم بسيطة متناقضة أن تحل مشكلاتها، والحنين إلى الماضي مشروع، لكنه لا يستطيع تماما استرداده، والحل يكمن في التجاوب الفعال والإيجابي مع المنجز في تركيبته الكلية، لكي يتم في الأخير تحقيق اللحاق والإنجاز التابع، ثم المماثل.

---

[9] ص 81، وما بعدها.

إن الشيزوفرينيا الإبستمولوجية لا تؤدي إلا إلى تصدعات وانقسامات يستحيل رأبها، ورغم آلاف الشقوق الظاهرة والمخفية تحت السطح، تظل التجربة الثقافية الحاملة للهويات تتخفى من وراء الظاهر في ابتسامة تحمل بعض ملامح الماضي الذي لم يعد له وجود.

6- إيران في مفترق طرق، أو في مستهل الزمن الجديد:

أحدثت انقلابات الحداثة في مراحلها العديدة، اهتزازات جذرية، وأزمات كلية، جعلت المتفائلين يقفون على حافة الثقة المفرطة في العلم ومكتسباته، والمتشائمين يلوحون ببيادر النذر لما تسوقه على البشر من ويلات، والأدعى ذاك الموقف الوسط الذي يستشرف حضارة بديلة، لا تلغي الفرح المفرط، ولا الخوف المبالغ فيه. ومن ممكناتها أيضا منحها لفرصة الحراك التاريخي العام، وتشكيلاتها الأساسية، الثقافية والاقتصادية والسياسية؛ واتصالها بالحرية، الدينامو الأساسي لكل تقلبات التاريخ وتحولاته. والغريب أن الاتحاد السوفييتي الذي بدأ ماركسيا خالف كل القيم التي نشأ أصلا من أجل بلوغها، وتحققت فيه سنة أن العلاقات الاجتماعية القائمة على الاستبداد تقود إلى تيبس الأشكال الإنتاجية، لذا أهم المقولات الثقافية التي حققتها الحداثة هي الحرية وما أدت إليه من تنويع في الأداء من إبداع واختراع، ونظريات علمية وفلسفية تحولت مع مرور الوقت إلى ثورة إنتاجية عارمة، نعتت بالثورة الصناعية، حال عمت أوروبا وبعض مناطق العالم، لكن ما يسمى بالعالم الإسلامي حرم من مردودها، فلم يتجاوز التخلف ليبني نموذجه الحضاري وتجربته التنموية الخاصة، ومن مظاهر ذلك:

أن الفضاء الإسلامي مسكون بالأيديولوجيات المختلفة، خاصة الموالية للمنزع اليساري، سليل الثقافة الماركسية اللينينية. وما زاد الوضع حرجا، اتصال الأسلوب الجديد المنعوت بالثورة في إيران، وارتباطه بأيديولوجيا مستقاة من الدين، بتقييم وقراءة متأسسة على التأويل التقليدي غير التقدمي.

ويزيد الوضع جلاء، إذا ربطنا التحليل بحال الصلة بين الفضاء الاجتماعي المفتوح في علاقته مع مؤسساتها المدبرة، خاصة الدولة، حيث انزوى دورها في الغرب وتحجم بدور المجتمع المدني، وتعاظم في العالم الإسلامي إذ تغولت السلطة وصادرت الحريات، واندفعت إلى أشكال بدائية من التعاطي مع مواطنيها، قمعا وتهجيرا وسرقة للحقوق... ومصادرة الحرية شرط الديمقراطية؛ وهذه بدورها مقدمة لكل تحول اجتماعي يتبعه الانتقال في شكل الحياة الثقافية والعلمية والتكنولوجية. دائما يتأسف الكاتب أن العالم الإسلامي يلغي الاختلاف لصالح الأحادية بدعوى الحفاظ على النظام الاجتماعي والسياسي وفقهاء الشريعة، عوض أن يصنعوا الإنسان الحر المنطلق المؤمن بقدراته، يعمدون إلى تكتيل الجماهير في شكل حشود فاقدة للحرية

والإرادة، بدعوى الطاعة "...وفوق ذلك، فإن الدين، وهو يفاجئ العالم الذي يتخطاه تاريخيا، يتزاوج مع الأشكال الأكثر راديكالية من الأيديولوجيات التوتاليتارية، ويتحول، رغم أنفه، إلى معادل ديني لنوع من الفاشية"[10]

يطرح الكاتب سؤالا مهما، عن مورد الانحراف، وسبب الفروق الأساسية بين الممارسة التاريخية في العالم الإسلامي، وفي الغرب. يقول: إن السبب الأساس يعود إلى المولدات الفلسفية، والأسس المعرفية الأولى التي انبثقت عنها كل هذه الأوضاع. الغرب سيرورة؛ تولد فيها كل شيء عن مقدمات طبيعية، تأتي من السجالات المفتوحة والنوعية التي قضتها هذه الحضارة في مواجهة أزماتها الخاصة، وكيف انتقلت في حلها من مرحلة إلى أخرى.

أما العالم الإسلامي، انقطعت دورته الإنجازية التاريخية، فدخل إلى شكل مفارقي من الحياة، حيث ربط بين انتظامات غير مجتمعة من حيث المبدأ الفلسفي. وجلب مظاهر الحداثة الشكلية، إلى طريقة العلم التقليدي، فأورث أزمات أكثر تعقيدا، وعوض رفعها، زاد تكرسها، وظهرت جراءها أمراض من نوع آخر غير مألوف. ومشكلة إيران طارئة بعدما يسمى بالثورة، لأنها بداية القرن وما بعد الحرب العالمية الثانية، انخرطت في محاولات سمحت لها بالاقتراب من التاريخ الحداثي للعالم، وأيضا لم يتحول الاعتبار الديني بعد إلى ملمح تمييز، لكن بمجرد أن حدثت الانعطافة الدينية ودخول إيران في سياق التحريك العام لطبقاتها وفئاتها في سجالات أيديولوجية، خسرت منجزاتها ورجعت إلى الوراء، "...وغاصت في هستيريا الانتحار الجماعي القاتلة"[11].

والأغرب أن أغلب المقولات التي تواجه بها النزعة الحداثية ومترتباتها التكنولوجية الاستهلاكية، هي حداثية بامتياز، ما ولد حالة دوار للوعي المتأمل في هذه التجارب، ويجعله يلحظ التراجع المرير عن المكتسبات التي تحققت في إيران التحديث، وفي الوقت الذي تراجع المجمعات الثقافية الغربية نفسها، وتؤسس لخطابات التنوع والاختلاف والتشكل النفعي المتبادل، يتقوى وعي الهوية، وخطاب الذاتية المغلقة في التشكيل الجديد للدولة والمجتمع داخل إيران والعالم الإسلامي، فيظهر الانحدار الشديد في المستوى النفسي والعقلي والمعرفي، قبالة ما يحققه الآخرون من نجاحات.

---

[10] ص 94، وما بعدها.

[11] ص 99

وأمّر النتائج، عودة المكبوت الذي كان قد انزاح نتيجة أضواء الحداثة، ويعني به الدين في شكل قوانين وأحكام مسيجة للحياة العامة، وأخطر سماته نزع القداسة عن الدين ذاته، وحشره في نزاعات لا دخل له فيها من الوجهة التاريخية، وحتى لو ظهرت بعض محاولات التوجيه إلى الوسط، تكون حركة التاريخ قد أفضت إلى منتهاها، إذ كيف يصير مسبب الحرائق رجل إطفاء فجأة، وكما أحرق الدين العالم المحيط بالإنسان، سينحرق بدوره، تماما كالنار التي تأكل نفسها، بعد أن تستنفد ما حولها.

ورجال الدين، قادة الدولة الجديدة، استنفدوا غرضهم وفقدوا جدوى حضورهم التاريخي، بسبب توظيفهم للمخيال الشيعي الأساسي وما يتضمنه من متعاليات، وحالما نزلوا بها خبت جذوتها، وأضحت محل تساؤل مستمر، واختبار دائم من الناس، لأن حاجة الناس إلى الخبز أكثر بكثير من حاجتهم إلى رمزيات قد تكون بغير جدوى في الآن. إن الثورة الثقافية أخذت تتجه إلى عكس منطلقاتها؛ فعوض أن يتأسلم المجتمع، إذا به يصير ليبراليا في كثير من المضامين، بسبب إرهاق الحرب الذي أنهك الإسلام، وحرمه من اتقاد الإبداع والتجديد، وجعله يستعير الحلول والفهوم، وعوض الفقيه الملك، وحلت النظم التشريعية القانونية العلمانية محل الشريعة والدين. وتباين الانشداد إلى شكل مفرد بعينه، وتحول المجتمع الإيراني إلى ما قبل الحداثة، والمجتمعات التقليدية اللا صناعية، الآخذة بتشكيلات أدنى إلى الأطر القبلية والحالة الرعوية القديمة جدا، ما يعني أن إيران تراجعت وتخلفت، وخالفت الثورة دعواها، وخذل قادتها الشعب.

لكن مع ذلك، وجد الشعب الإيراني نفسه أمام مصيره، وجراء فشل النظام الجديد في الانتظام داخل مسالك الحداثة وأطرها، شرع يترجم ويؤلف، ويبتعث الآداب القديمة، ويحاضر، ويحاور، ويتعلم، حتى لا تفوته فرصة إدراك ما يحدث في العالم، وبدأ يستعيد أمله في البقاء وشرع في الاحتكاك مع الآخر، وينشئ نوعا من الوضع الذي يتيح له نهاية ردم الثغرة الحضارية بينه وبين الشعوب الأخرى، لكن هل في مقدوره فعل ذلك؟

7- الإسلام بين العلمنة والحداثة، هل من مصير آخر؟

شرع الكاتب في الفصلين السادس والسابع، في محاولة خلق نوع من التواؤم بين التجربة الثقافية التاريخية والقيمية المتمثلة في الإسلام، وبين ما أنجزته الثقافة الغربية من مجالات يعد الدين واحدا منها، وليس كلها، ما أعطى في الأخير إمكانية الانطلاق التاريخي لتلك المجتمعات إلى أشكال من التقدم الهائل، جراء الحسم الجذري والنوعي في صلة الدين بكافة نطاقات الوعي، وما ينبثق عنه في الحياة؛ وهنا يسأل داريوش، هل في إمكان الإسلام أن يخلق أوضاعا كتلك؟ أم أنه منظومة شمولية موصدة في وجه كل محاولة من هذا النوع؟

إن سوء الفهم يغذي أغلب الأطراف المعنية بإشكال الصلة بين الإسلام والعلمنة، وبينه والحداثة؛ فبعض الغربيين يعانون رهابا شديدا إزاء الإسلام، ومبعثه عدم الإحاطة التاريخية بهذا الدين وبملابسات تشكله وتطوره، ومن ثم كل عمليات اختزاله في بعض الأشكال أو التصرفات، لا ينم إلا عن جهل شنيع بالوعي المركب إزاء الظواهر المختلفة. وكذا الحال بالنسبة للمسلمين الذين يختزلون الحداثة والعلمنة، في الموجة الاستعمارية، وبعض المظاهر الحياتية المباينة لمنطق دينهم، وينعتونها باللا إنسانية، واللا قيمية... في مقابل الفهم السيئ للإسلام باختزالية شديدة بسبب الظن بتصلبه وانغلاقه، وأيضا لكونه نظاما شموليا كليانيا يمنع من انفتاح أبنائه، زيادة إلى أنه عصي على عمليات التكييف التاريخي ليخضع للحداثة والتحديث. ولكي يثبت المسلمون صلاحية دينهم يلجأون إلى ترقيعات ظاهرية تخاتل طبيعة الدين ذاته، وتسلمه إلى عمليات شكلية لا تحدث أدنى تغيير في ذهنيات الناس وظروفهم، فما بالك بتحقيق التحديث والحداثة.

ومن الاعتبارات التي تعيق الوصل بين النمطين السابقين، رفض إحدى الجهتين للتنميط المتولد عن الهويات الثابتة المتيبسة، وشرط الأخرى الاتصال بالانفتاح الجذري وقبول التعدد التام، حتى ما يوصف بأنه مخالف للعقائد الرسمية، ولأحكام الشريعة، فتتكاثر عوامل فقدان الثقة والتوجس من كل شيء يمثل الحداثة والعلمانية بالنسبة للإسلام، أو ما يمثل تجربة الإسلام تبعا للنمط الغربي الآخر. والتفاوت الظاهر بين الجهتين، يبرز في كون الغرب جمع بين الانفتاح على الروح وقيمها في النطاق الفردي، ويستدعي الثراء الرمزي باستمرار في المخيال الخاص. أما النظم العامة، فهي مجذرة في تشكيلات تاريخية كلية متطورة، وناشئة عن التعاقد، في حين نجد أن الإسلام لا يقبل تجزئة الحياة بين عام وخاص، وبين فردي وعمومي، لكونه نظاما كليا يأخذ بزمام الحياة كلها، وهنا مشكلة المشكلات التي تمنع عن التجاوب.

ومع الصعوبات السالفة، يبقي الكاتب دائما على هامش الممكن في صورة حوارات ثقافية، وتبادلات للرأي في المشكلات التي تواجه الإنسانية معا، وربما أن تجربة التعايش في بعض المجتمعات والدول، تمثل نموذجا يمكن تعميمه. ويقود في النهاية إلى قيام عصر جديد تتقارب فيه التجارب وتتكامل، وهذا من التعريفات التي يقدمها الكاتب للحداثة، باعتبار عناصرها الأربعة الأساسية، التي خصها هيدغر (1976) الفيلسوف الوجودي الألماني بالنقد: الفردية، العقلانية، التوتاليتارية، السيطرة الكونية، إضافة إلى عناصر كلود ليفي شتروس، الأنثروبولوجي البنيوي الفرنسي (2009) الموصفة لمبادئ الحداثة، من مثل: رفض الغائية، توسط التاريخ بين الواقع والمثال الأعلى، التاريخانية.. وأيضا مجموع انتقادات مدرسة فرانكفورت.

ومع ذلك كله تبقى الحداثة حالة تاريخية وثقافية غير مسبوقة، لما حققته من نجاحات وفتوح نوعية عمت أغلب العالم، وبما أن الإسلام من الظواهر التاريخية التي تعمل على التجاوز، فإنها معنية بخلق تجاوبات

إيجابية معها، بالرغم من أن الفقهاء يصرون على تقديمه في صورة استعلائية تحرمه من التعاطي الفعال المثمر، والذي يفضي إلى تحقيق الانتقالات الكلية والنوعية للمسلمين، ومعهم فهمهم للعالم، خاصة إذا أفضوا إلى الموجة الثالثة للحداثة؛ أي عصر الما بعد الصناعي، فضاء المعلوماتية بكل تنويعاته وقفزاته، لكن هل يمكن بلوغ المرحلة الثالثة من غير المرور عبر المراحل السابقة؟

إن الحداثة حالة مركبة، لها ما قبلها، وما بعدها، والتعاطي المصمت والشكلي مع كيانها يورث تزييفا للوعي، بالنظر إلى المكونات السياسية لكل مرحلة، ما يستدعي الحذر في التقييم، وإلا انتهى المسلمون في فهم العالم إلى قوالب وأطر معرفية مشوهة غير دالة، ولا يقف تأثيرها المزيف عند حد الآخر الغربي، بل ينعكس على تراثهم فيفقدون الوضوح والشفافية في كل شيء، فيخرجون من التاريخ قبل دخوله، ويحرمون مخيالهم من الثراء المتاح عالميا، وتخفت عندهم حاسة الإدراك والفهم، ومن ثمة المقدرة على النقد والتمييز بحذاقة. فالإسلام بحاجة إلى مثقفين حكماء، لا إلى أيديولوجيين مزيفين وموهومين، لأن الفهم شرط الممارسة الصحيحة التي تجعل العالم الإسلامي في اتجاه عملي صحيح، ولا يغرق في تهويمات النضالية الساذجة، والتي باسم موجهة الأعداء تحرم مجتمعاتها من رصيد ثري وغني، تحقق للغرب حال تجاوز المعبودات المكبلة له، على حد توصيف بيكون فرنسيس الفيلسوف التجريبي. لكن لا يقودنا هذا إلى الخلاصة المستهجنة التي تشرط التطور بالانفصال عن الدين، أو بالارتباط الكلي مع فهوم الفقهاء التي عفا عليها الزمن، المهم السبر عن الاتصالات المثمرة التي تطور الوعي، بخلفياته المعرفية، وبمسالكه المنهجية، وبتطبيقاتها المتعددة، والتي تتيح في النهاية تجربة اتصال وتواصل بين العالم، من غير القفز على مكتسباته العلمية والتقنية، وأيضا بغير الانفكاك عن الرصيد القيمي الثري المثوي في مصادر المجتمعات الدينية والفكرية والفلسفية.

8- التوصيف غير المطابق، أو اعتبار التاريخ في التفريق:

في حوار له مع واحد من المثقفين الشباب الفرنسيين، قال له الأخير لكي نفهم تصرفات الجمهورية الإسلامية الإيرانية (1979)، يجب أن نماثل منطقها مع منطق الثورة الفرنسية (1789)، فاستدرك عليه شايغان بالمفارقة المنطقية الماثلة في المطابقة، ذلك أن لكل مجتمع سيرورته ونضجه في التاريخ، ولكي تستوي هذه الحالة، مثل الأخرى تحتاج إلى رصيد من الوعي الفلسفي الممهد والمحقق لقطيعات حقيقية، بين وضعي مقبل/ما بعد الثورة. وهنا يسأل هل شاه إيران هو لويس الرابع عشر؟ وهل مثقفو إيران، هم الفلاسفة الموسوعيون الفرنسيون؟ وهل الفئات الوسطى هي عين الطبقة البورجوازية التي تكونت آناء القرن الثامن عشر؟ وهنا يقر الكاتب بالتمايز الأساس بين التجارب، لكن يسأل ما هو السر الذي وقف في ذهن الشاب الفرنسي حتى ماثل؟ يقول إنه مخزونه الثقافي الذي جمع ذاكرته الثقافية بكل منعرجاتها، وأضحت عنده بمثابة

النموذج المعيار الذي يقيس به العالم، وهنا تنصبت الثورة الفرنسية عنده كمؤشر تاريخي لكل انقلاب أو لتغيير بوسائل القوة. لذا، فالثورة الإيرانية لا تفهم إلا بوساطة سمات الثورة الفرنسية ومراحلها وآلياتها.

ثم شرع الكاتب في بيان الفروقات والمميزات الأساسية لكل من شاه إيران ما قبل الثورة، والإمام الخميني، وكيف أن هناك تماثلات عجيبة في شخصيتهما، لكن بأفق مختلف، وفي الأخير كل منهما طبق رؤيته وفرض مزاجه على أنه الحق، ومع ما اتسمت به شخصية الخميني من عمق وحذاقة وعلم غزي بالتوصيف التقليدي، يظهر أنه متصلب ومتقلب، ولغة مملوءة بالفراغات كما لو كان أميا أو صبيا صغيرا، وكذا الشاه، "..إن هذين الرجلين، رغم الاختلافات البارزة هذه، ارتكبا الأخطاء القاتلة إياها، وجسدا، كل على طريقته، السمتين الإيرانيتين بامتياز: الشيزوفرينيا الثقافية وحلم العظمة، سواء في ما يتعلق بإعادة بناء الإمبراطورية الساسانية على يد شاهنشاه إيران، أم ما يرتبط بنشر الإسلام كونيا على يد إمام.. جنة الحضارة الكبرى على الأرض، وجنة البعث والقيامة في السماء"[12].

وبعد مقارنات عدة، يخلص شايغان إلى صعوبة تعايش الحداثة والثورة بالمنطق الغربي، وكذا العلمانية، مع منطق آخر يعتبر التعدي على بعض المقدسات أمرا خطيرا، ممثلا بسلوك الخميني، مع سلمان رشدي وكتابه "آيات شيطانية"، وما أدى إليه الموقف من ردود فعل عالمية مستنكرة، ما يدل في النهاية على التفاوت في مقاييس التمييز والحكم على الأشياء، وخلفيات ذلك كله، تكمن في طريقة التفكير، ونمط المعرفة التي تحدد سلوك أفرادها من العالم، ومع أن الإسلام تجربة روحية نوعية وفريدة، هو بحاجة إلى إخضاع بعض جوانبه للتاريخية التي لا تؤثر في جوهره، حتى تتمكن من مسايرة التقدم وبلوغ التفوقات الأساسية التي وصلت إليها طاعات كبيرة من البشرية، وبذلك يفرض طريقته في الجواب كشكل متقدم، خاصة ما يتعلق بالأسئلة الوجودية، من غير أن ينكفئ ولا أن يتعصب، وفي انفتاحه تطوره ونجاحه، وفي انغلاقه تراجعه وهزيمته، لا على المستوى التاريخي الكلي، بل حتى في النطاق الخاص الذي يهيمن عليه، ويمارس حضوره فيه.

---

[12] ص 143

MominounWithoutBorders

@ Mominoun_sm

Mominoun

الرباط – المملكة المغربية

ص.ب : 10569

هاتف: 00212537779954

فاكس: 00212537778827

info@mominoun.com

www.mominoun.com